دير سمعان

ديارات سمعانه

في شتى بلاد الشام أديرة كثيرة متفرقة يسمى كل منها دير سمعان: في ظهر انطاكية واحد، وفي اعمال المعرة او حمص واحد يقال انه كان بين جبل عليم والجبل الاعلى، وفي جبل لبنان واحد، وقيل ان بالغوطة واحداً [٣٩٩] ولكن العمري انكر ان يكون بالغوطة دير يقال له دير سمعان وقال انه لم يسمع بدمشق لهذا الدير ذابسة، ولم يعرف لمكانه في غوطتها خضراء ولا يابسة. [٤٠٠]

وقد نبهت هذه الاديار كلها لان واحداً منها نُبِّه ذكره ونبغ شأنه، هو دير المعرة او دير حمص، كان منذ اقدم الازمنة مرعيّاً مزوراً، وقد انعطف عليه في عصر بني امية جرير بن عطية الشاعر الاموي، وكان انعطافه اليه في يوم عيد، فلما رأى اهله وتقليدهم فيه انشد في الدير شيئاً من شعره، ولكن الدير ظل انبه من شعر

---

(٣٩٩) معجم البلدان ج ٤ ص ١٤٩ ــ غوطة دمشق ص ٢٣٩

(٤٠٠) مسالك الابصار ج ١ ص ٣٥١

جرير وأذهب منه في صيت الزمن ،وحتى بعد ان مسته يد العفاء فخرب بنيانه ونسي مكانه ،فقد ظل الدير عالياً الصوت في التاريخ، ولم تطغ على شرفه ومنبهته اخواته الاخرى وان كانت لم تزل باقية المعالم مخطوطة البناء .

كان من اعظم الشرف الذي أصاب هـــذا الدير ان عمر بن عبد العزيز الخليفة الخامس الراشد ، مرض به مرضةَ موته ثم دفن في أرضه ، وبقي قبره بها معلماً مشهوراً حين امتدت يد التدمير الى قبور الملوك والخلفاء من اهله ، وظل واضحاً معروفاً على بيّنة من الطريق حتى أتى الزمان على الخير فمحاه كله ، وحين طغى الجهل فشمل هذا الشرق العربي ولف ارجاءه في شملته ، وحين زحفت جيوش المغيرين فطمست في طريقها المعالم ومحت المنابه ، وتاه القبر والدير عن عيون أهل الحاضرة والبدو ، ونسوا أنهم كانوا يفدون عليه أزماناً طويلة يعظمونه لمدفن عمر به ، من أصابه خير منه في حياته ومن لم يصبه [٤٠١]

وقد وقف به وهو معلم مشهور أحد بني خزاعة يرثي عمر يقول:

أما القبـور فانهنّ أوانس ... بجوار قبرك والديار قبور
جلت رزيتـه فعمّ مصابه ... فالناس فيـه كلهم مأجور
ردّت صنائعه إليه حياته ... فكأنه من نشرها منشور
والناس مأتمهم عليه واحد ... في كل دار رنة وزفـــير
يثني عليه لسانُ مَن لم توله ... خيراً لأنك بالثناء جدير [٤٠٢]

---

(٤٠١) مروج الذهب ج ٢ ص ١١٩

(٤٠٢) الكامل للمبرد ج ٢ ص ٢٦٧

مخافة الموت

كانت مخافة الموت قد هيمنت على عمر بن عبد العزيز حتى شملته كله وغمرت قلبه وعقله ، غمرته مذ كان صبياً صغيراً ، فجعل يبكي كلما لاحت له فاعترضته المخافة. وبلغ أمّه يوماً أنه بكى ، ولم يكن بكاؤه من شيء أساءه ، وقد جمع القرآن في صدره ، والقرآن يشفي كل صدر من حزنه ، فأرسلت اليه تسأله عن سبب بكائه ، فأرسل اليها يقول : قد ذكرتُ الموت ! فلما جاءها الرسول بردّه بكت هي أشدّ مما بكى ابنُها ، بكت لانها ذكرت الموت ، وبكت لأن ابنها يفكر وهو صغير في زحفة الزوال [٤٠٣]

وجعلت دائرة المخافة تكبَر في نفسه وتتسع كلما شب وأينع ، وهي حال لا تسير الى جانب اليَنعة والشبـــاب في كل الناس ، ولكن الأمرين المختلفين سارا معاً في عمر وهما متقاربان او يمتزجان. بل ان مخافة الموت كانت تفحل وتضخم كلما تمكّن عمر من الدنيا وقبض على مُتَعِه منها ، ولم يعد لفكرة أخرى أن تحل مكانها في موطن قلبه وعقله أو تزيحها لتستقر قليلاً ثم تروح .

ولعل الأحداث التي جرت حوله في الحجاز وهو صبي ، وفي مصر والشام وهو غلام ، كان لها ذلك القهر على نفسه ، فقهر بها اكثر مما قهر بأقوال الفقهاء ونصائح الوعاظ والزهاد الذين أحاطوا به كحلقة الحديد حين حَبَا وحين درج وحين شب ثم صار رجلا . وقد قضى امام عينيه من الخلفاء عبد الملك والوليد وسليمان وواراهم التراب بيده . ومع انه كان يكره الوليـد فإن موته كان له عظة

(٤٠٢) ابن الجوزي ص ٩

وكان كثيراً ما يخلو لنفسه ويبكي فيسمع نحيبه بالبكاء وهو يقول : أبعد الثلاثة الذين واريتهم بيدي : عبد الملك والوليد وسليمان!

وقضى امام عينيه سهلٌ أخوه ومزاحم مولاه وعبد الملك ابنه ولم تكسر الرزايا طبعه . وأصلب الطباع ينكسر ولو مرة واحدة وقد يلازمه الانخذال والانكسار . ولكن مصائب المنايا زادت نفس عمر ايماناً بالموت وحباً فيه واصراراً على طلبه [٤٠٤]

وقد اقترنت مخافة الموت في نفسه بايمان خالص بقرب البعث كأنما قنطرة القبر نومة ليلة ثم يفيق على جنة أو نار ، وكما أخبر الاسلام بالعقاب والمثوبة باتت نفس عمر على رهبة أخرى هي اشد هولاً من رهبة الموت في نفوس من يفكرون في الموت وحده دون أن يؤمنوا ببعث أو حساب .

وكذلك صارت للموت رنة صارخة في جوفه وهزة راجفة على بدنه . فاذا ذكر لفظ الموت على سمعه ، أو حانت منه حومة على خاطره ارتجفت اعضاؤه واضطربت اوصاله . ولم يكن قد بقي في زمانه راهب يرهب الموت مثله الا واحد ، هو الحسن البصري كان يرتجف منه مثل رجفته ، حتى قال يزيد بن حَوْشب : ما رأيت اخوف من الحسن وعمر بن عبد العزيز للموت ، كأن النار لم تخلق الا لهما [٤٠٥]

ولما وطّن عمر نفسه للموت قبل ملاقاته سهل عليه ان ينفض عنه غبار الشهوة ، ثم لم يلبث حين تدرب على احتمال الشدائد ان ضحى بذات نفسه لاسعاد الناس وردّ حقوقهم واكثر منها ، فاتخذ

(٤٠٤) العقد الفريد ج ٤ ص ٤٣٣

(٤٠٥) ابن الجوزي ص ١٨٣ ، ١٩١

لنفسه جسراً من السعادة لا يهنأ في السير عليه إلا كل صبّار. ولقد استولى الايمان عليه مستيقظاً ونائماً يقول له : اثبت على ما انت عليه ! ولم يصبح نزول القبر عنده الا زيارة يخفّ الميت بعدها وشيكاً الى داره التي ينزل بها من جنة او نار.

ولما خلع عمر من نفسه حبّ العاجلة واقتلع الطبع المبذور في طينتها ، وأقصى عنها لذّات البدن واستراحاته انقاد لنفسه الناطقة حين قويت وتقبل تأديبها بالدين والآداب وصمّم على ان يخط طريقه الى الجنة ، وبينها وبين المرء عقبة مضرّسة كئود لا يجوزها الا الضامر المهزول .

ولم يكن شيء يغير من لون عمر ويهدّ من قوته ويكسر من عنفوانه اكثر من رؤيته القبور ومروره عليها . وقد حدث ميمون ابن مهران انه خرج معه الى المقبرة ، فلما نظر الى القبور بكى ، ثم أقبل على ميمون فقال له : يا أبا ايوب ، هذه قبور آبائي من بني امية ، كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا في لذتهم وعيشهم ! اما تراهم صرعى قد حلت بهم المثلات واستحكم فيهم البلى ، واصابت الهوامّ في أبدانهم مقيلا ! ثم بكى وأطال ، فلما افاق قال لميمون : انطلق بنا ، فوالله ما أعلم احدا انعم ممن صار الى هذه القبور وقد أمن عذاب الله .

وأصغى عمر بسمعه وقلبه لاقوال الوعاظ في الموت : دخل عليه الرقاشي يوماً فقال له : عظني ، فقال : يا أمير المؤمنين ، انت اول خليفة يموت ! قال : زدني . قال : ليس بين الجنة والنار منزلة ! وأما هو فقد صار أول وعاظ الموت في زمانه ، وكان كثيراً ما يتمثل

بقول القائل :

من كان حين تمس الشمس جبهته أو الغبار يخاف الشين والشعثا
ويألف الظل كي تبقى بشاشته فسوف يسكن يوماً راغماً جدثا[٤٠٦]

ومما وعظ به في خطبة له قوله : أيها الناس ، إنما الدنيا أجل مخترم وأمل منتقص ، وبلاغ الى دار غيرها ، وسير الى الموت ليس فيه تعريج ، فرحم الله امرءاً فكر في امره ونصح لنفسه وراقب ربه واستقال ذنبه ونوّر قلبه . أيها الناس ، قد علمتم أن اباكم قد خرج من الجنة بذنب واحد ، وأن ربكم وعد على التوبة ، فليكن أحدكم من ذنبه على وجل ، ومن ربه على أمل[٤٠٧] .

ولقد ظل عمر يبكي مخافة الموت حتى صار البكاء طابعاً له فبكى من غير سبب[٤٠٨] . ولما سئلت فاطمة بنت عبد الملك عن عبادته قالت : والله ما كان بأكثر الناس صلاة ولا اكثرهم صياماً ، ولكن والله ما رأيت أخوف لله من عمر ! لقد كان يذكر الله في فراشه فينتفض انتفاض العصفور من شدة الخوف حتى نقول : ليصبحن الناس ولا خليفة لهم ![٤٠٩]

النفس التوّاقة

وكان من خير الناس — ولو في مدة واحدة قد مرّت كما يمرّ الطيف — أن تصيب مخافة الموت نفسَ واحد منهم يتولى شئونهم ، من حيث لم تزده المخافة إلا خفّة لنجدتهم ، فلم يبطىء عن الاجتهاد

(٤٠٦) الكامل للمبرد ج ١ ص ٣٧٥
(٤٠٧) الكامل للمبرد ج ٢ ص ٣١٧
(٤٠٨) صفة الصفوة ج ٢ ص ٦٨
(٤٠٩) ابن عبد الحكم ص ٤٧

لهم ، ولم تقعده المهابة عن أن يعمل لخيرهم مع نفسه أو قبلها كما أقعدت غيره من الزهاد الذين لم تُلْقَ عليهم مسئولية النـــاس ورعاية العباد .

وقد خلا الزهاد إلى أنفسهم في خلواتهم للخوف والعبادة . أما عمر فقد اقتحم ولم يفرّ كما فرّ معاوية الثاني حـــين ولّوه الخلافة وأدرك أنه ليس صاحب الأمر . ومضى عمر يحمل العبء ويضيف على كاهله الاثقال حتى لا ينجو ،وكلما انحط عنه واجب تاقت نفسه إلى واجب .

وهفَتْ نفسه إلى الولاية حتى يكون أقدر على العمل وأمكن من النفع . فلما كان والياً على المدينة تاقت نفسه الى الخلافة — ولم يكن يدري أنها قدرٌ له — فلما تولاها تاقت نفسه الى الجنـة . ولم يكن توق أمانٍ باطلة لا يتقدم العمل الصالح بين يديها ، بل عمل جهده وأنفد اصطباره حتى لم يصر أحدٌ أولى بها منه ، وعمل للخلافة حتى لم يبق من يتطاول لها غيره ، وعمل للجنة حتى ظُنّ الحسابُ أنه قد سقط عنه .

ولم يصدأ خاطر عمر أو يخمد شعوره مهما طال به الشجن ، كما يبلد شعور الملوك والرؤساء حـــين يصيرون الى الملك والرياسة فيظنون أنهم بلغوا الغاية فينهمكون في ملذاتهم وكأنهم أمنـوا مكر الدنيا جهـلًا منهم وغروراً ، ولكنه استمر لامعاً متدفق الحياة تواقاً إلى المعالي عاملًا لها ، وقد أقر هو على توق نفسه ودل على طموحها حين قال : ان لي نفساً ذواقة تواقة ،كلما ذاقت شيئاً تاقت الى ما فوقه ، ولقد رأيتني وانا بالمدينة غلام مع الغلمان ثم

تاقت نفسي إلى العلم بالعربية فالشعر فأصبت منه حاجتي ، ثم تاقت نفسي الى فاطمة بنت عبد الملك فتزوجتها ، وتاقت الى الامارة فوليتها ، وتاقت الى الخلافة فأدركتها ، فلما ذاقت الخلافة ولم يكن شيء في الدنيا فوقها تاقت نفسي الى ما عند الله في الآخرة [٤١٠]

بقاء الروح

واستبصر عمر فرأى حياته — وإن انقطعت في الدنيا — لا محالة مفضية الى وجود سرمديّ ، فليست في الموت نهاية المخلوق ، وانما هي نقلة من حياة الى حياة — كما صوّر الاسلام — فهو مخلوق للأبد مصنوع للخلد ، ولكن من دار الى دار ينتقل . وليس بالجسد يخلد الانسان ، وليس للجسد أن يكرم أكثر من الوقت الذي تنتثر فيه عظامه وينهتك عنها اللحم وتنفك العروق . فالشيود التي يشيدها الناس لقبورهم في الأرض ، والمعالم التي ينصبونها شواهد تدل وتشهد ، لم تكن في رأي عمر إلا وهماً باطلا وظلا حائلا . فليس سوى عام واحد تبقى الجثة ثم يجب ان تحرث الأرض وتسوّى لينتفع الناس بالأرض ، وحتى لا يعلق الزهو بالنفوس ويتشبث الناس بالدنيا فيخافوا ان يزولوا .

محبة الارض

وكان عمر — من كثرة ما مثل امامه الموت — كلما نزل أرضاً يظن أن الموت ملاقيه بها ولن يبرح ؛ فكان يود كلما نزل أرضا فأحبها أن يلقى بها منيته وأن يُدفن في أرضها . احب أرض المدينة أول

(٤١٠) شذرات الذهب ج ١ ص ١٢٠ — ابن الجوزي ٦٦ — وفيات الأعيان ج ٢ ص ٦١

ما أحب وطالما عاوده الشوق اليها وحنّ لها ، وودّ لو رجع لئلا يكون ممن نفت المدينة ، ثم ألف الاسكندرية حين زارها ورآها فأحب لو عاش ثم مات بها ، وقد قالوا إنه قال لزهرة بن معبد احد فضلاء المؤمنين وأحد غزاة إفريقية في البر والبحر : أين تسكن ؟ فقال زهرة : بالفسطاط ، فقال له عمر : وأين انت عن الطيبة ؟ قال : وأين الطيبة ؟ قال : الاسكندرية ، فانك تجمع فيها دنيا وآخرة . انها الطيبة الموطن . والذي نفس عمر بيده لوددت أن قبري يكون بها ! فسكن زهرة الاسكندرية بعد قول عمر له وترك سكنى الفسطاط .[٤١١]

فلما كان عمر خليفة ومكث في الخلافة سنتين واشهراً قليلة ، ذهب في زورة له إلى الشمال ثم نزل بدير سمعان في جانب قرية عرفت بالبقرة من قبليّ معرة النعمان في انحراف الى حلب [٤١٢] نزل به يستجم من علة تحركت به كأنها علة سمّ قاتل يدب خفياً وهو سريع ، ولم يلبث الداء ان فشا فيه ، فظل يشكو عشرين يوما ثم الحت عليه الشكوى تسعة ايام [٤١٣]

ومنذ بدأته العلة في خناصرة وأيقن بالموت نهض يخطب بها ويقول : واعلموا أنما الأمان غداً لمن حذر الله وخافه وباع نافدا بباقٍ ، وقليلاً بكثير ، وخوفاً بأمان . . . فلما انتهى من خطبته رفع طرف ردائه فبكى حتى شهق وأبكى الناس حوله ثم نزل فكانت

---

(٤١١) رياض النفوس ج ١ ص ٩٠

(٤١٢) مسالك الابصار ج ١ ص ٣٥١

(٤١٣) العقد الفريد ج ٤ ص ٤٤٠

اياها [٤١٤] ، ولم يُرَ بعدها على تلك الاعواد حتى قبضه الله [٤١٥] ، ثم أحسّ انه في حاجة ليستجم فأسرع الى دير سمعان .

وعرف عمر ان السّم من يد خادم دسّه يزيد بن عبد الملك، أو قيل، واتى بالخادم فأعترف بأنه وضع له سمّاً على طرف إبهامه ودسّه في الماء وسقاه له فتركه عمر . ومن غريب أمره أنه كان يكره الخوارج ولكنه صار كالخارجيّ في حرصه على الموت ، وكان الرجل منهم اذا طُعِن قنّع فرسه ليسبح في الرمح وينتهي الى طاعنه وهو يقول : وعجلت إليك ربّ لترضى !

وقالوا لعمر : لو تداويت ! فقال : لو كان دوائي في مسح أذني ما مسحتها ! نعمَ المذهوب اليه ربي !

وكان عمر بعث من قبل الى عبد الله بن أبي زكريا ، وكان رجلًا من صلحاء اهل الشام فقال له : يابن أبي زكريا ، هل تدري لم بعثتُ اليك ؟قال:لا . فقال : لأمرٍ لست ذاكره لك حتى تحلف لي . قال : لا تسألني شيئاً الا فعلتُه ! فقال عمر : فاحلف لي ،فلما حلف له قال : ادع الله أن يميتني .

قال الرجل :بئس الوافد أنا للمسلمين! وأنا إذن عدو لأمة محمد! فقال عمر : هاه ! قد حلفتَ لي ، فلم يجد الرجل الصالح ابن أبي زكريا بدّاً من الوفاء فدعا لعمر بالموت ! ولم يلبث أن عز عليه ما فعل فرفع يديه داعياً يقول : اللهم لا تبقني بعده ، وبينما هو يدعو كذلك اذ أقبل صبي صغير لعمر ، فقال لابن أبي زكريا : وهذا

---

(٤١٤) الطبري ج ٥ ص ٣٢٣

(٤١٥) الاغاني ج ٨ ص ١٥٢

فأني أحبه ،فدعا له ابن أبي زكريا . ثم لم يلبث حين مات عمر ان مات ابن زكريا ثم مات الصبي [٤١٦]

وحين وثق عمر من انه ميت في مكانه لا محالة نام للعلة ولذهبي الخاطر في قميص من شعر مما يلي جسده ، يمتد الى ركبتيه، أما كبّاه فقد بلغا مرفقيه [٤١٧] واشير عليه أن يخلع قميصه ذاك فأبى ، وجعل يتلقى به عرقه وجهده ، ورفض ان يؤتى له بثياب أخرى من بيت المال ، وهي مرة فريدة في حياته امتنع فيها عمر أن يخلع قميصا لم يغسل لأنه لم يجد له من بقاء ، وإنما يُبْقي على جديد الدنيا من يأمل فيها البقاء .

ولما ثقلت به العلة دخل عليه صاحب الدير يطرفه بهدية من فاكهة مما أثمر شجر الدير ، فتقبل عمر الفاكهة بقبول حسن ، وأمر له بالثمن ، فأبى الديرانيّ ، فلم يزل به عمر حتى رضي وقبل ثمن الفاكهة . ثم قال عمر لصاحب الدير : اني ميت من مرضي هذا ! فحزن الديرانيّ ، وبكى لرقة في قلبه ونبل في نفسه وقرب في مودته ثم قال له عمر : قد بلغني أنك تملك هذه الارض – واشار له نحو أرض الدير – فبعني موضع قبري من أرضك لعام واحد ، فاذا حال الحول فانبش الارض وازرعها وانتفع بها . وتم البيع على ثمن لم يُدْرَ بعد كم كان ، أكان دينارين أم كان أربعين [٤١٨]

(٤١٦) ابن عبد الحكم ص ١١٥

(٤١٧) ابن الجوزي ص ١٤٨

(٤١٨) اختلفت الروايات في ثمن قبر عمر اختلافاً كبيراً ولكنه انحصر بين دينارين وخمسين – مسالك الابصار ج ١ ص ٣٥٣ – معجم البلدان ج ٤ ص ١٤٨

ان الاسلام نظر الى ما بعد الموت ، وجعل الثواب والعقاب في الخلد بعدُ ، ورفع الاسلام أبصار الناس وافكارهم عن تقديس الجسد حياً وميتـــاً ، ولذلك نهى عن زيارة القبور الا للعظة ، فالركون الى القبور وتكريم اجساد الموتى يقف القلوب دائماً عند حدّ الحياة الدنيا . وقد ابصر عمر ذلك فطلب الى الديراني ان يحرث الارض بعد عام .

المال الموروث

واسرع الى عمر فيمن أسرع اليه حين علموا بمرضه عديل له ، فقال له عمر : نزل بي الموت ولم أتأهب له ، اللهم انك تعلم أنه لم يسنح لي أمران لك في احدهما رضا ولي في الآخر هوى الا آثرت رضاك على هواي فاغفرلي [٤١٩] . ثم جاء مسلمـــة بن عبد الملك — والصرعة تهلكه فيظن من يراه انه لا يفيق — وافاق عمر فرأى مسلمة فأوصاه ان يحضر موته وأن يلي غسله وأن يمشي معه الى قبره وأن يكون ممن يلي ادخاله في لحده . ورأى مسلمـــة الفرصة قد سنحت ليفرض عمر شيئاً لأولاده فقـــال : يا امير المؤمنين ، انك أفرغت أفواه ولدك من هذا المال وتركتهم عيلة لا شيء لهم ، فلو وصيتَ بهم اليّ والى نظرائك من أهل بيتك ! فسكت عمر : فقال مسلمة : ألا توصي يا امير المؤمنين !

قال عمر : فيم أوصي ؟ فوالله إنْ لي من مال ! فقال مسلمة : هذه مائة ألف فمر فيها بما أحببت ! قال عمر : أوتقبل يا مسلمة ؟ قال : نعم ، فقال عمر : تُرَدُّ على من أخذت منه ظلماً ! ثم غاب

(٤١٩) البيان والتبيين ج ٣ ص ٧٣

عمر غيبته فبكى مسلمة وقال : يرحمك الله ، لقد ألنتَ منا قلوباً قاسية وأبقيت لنا في الصالحين ذكراً [٤٢٠]

ولم يكن عمر ممن يرضى أن يورّث أبناءه مالاً فان الولد الصالح لا حاجة له في مال موروث ، والولد الطالح يفسده مال أثله حين يرثه . فلما أفاق عمر مرة ثانية قال : اسندوني ، ثم قال لمسلمة : أبالفقر تخوفني يا مسلمة ؟ أما قولك اني أفرغت أفواه ولدي من هذا المال ، فوالله اني ما منعتهم حقاً هو لهم . وأما قولك لو أوصيت بهم فان وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين . وان بنيّ احد رجلين : اما رجل يتقي الله فسيجعل الله له رزقاً واما رجل مكبّ على المعاصي فاني لم أكن لأقويه على معصية الله .

وكان اولاد عمر قد اسرعوا الى الدير فيمن أسرع ، كانوا احد عشر بقوا من أربعة عشر ، فدعاهم فنظر اليهم ثم قال : بنفسي فتية تركتهم ولا مال لهم ! أي بنيّ ، لقد تركتكم وتركت لكم خيرا كثيراً ، لا تمرّون باحد من المسلمين وأهل ذمتهم الا رأوا لكم حقاً . يا بني ، ان أباكم مثلَ بين امرين : اما ان تستغنوا ويدخل ابوكم النار ، او تفتقروا ويدخل ابوكم الجنة ، فكان ان تفتقروا ويدخل الجنة أحب إليه ! قوموا يعصمكم الله ! قوموا يرزقكم الله [٤٢١]

ودخل رجاء بن حيوة على عمر فقال له : يا أمير المؤمنين ، اكتب الى يزيد بن عبد الملك توصيه وتخوفه فقال : والله اني لأعلم أنه من ولد مروان ! فقال له رجاء : يكون حجةً عليه وعذراً

---

(٤٢٠) الكامل للمبرد ج ١ ص ١٤٠

(٤٢١) ابن عبد الحكم ص ١١٧ ، ١٢٧

لك عند الله ! فامر كاتبه أن يكتب اليه : أما بعد يا يزيد فـاتق الصرعة عند الغفلة فلا تُقال العثرة ولا تُقدر على الرجعة وتترك ما تترك لمن لا يحمدك ، وتنقلب الى من لا يعذرك والسلام. وكانت صيحة في واد .

ثم اشتدت الصرعة بعمر وجاء الهول، ولم يبق حول سريره الا فاطمة بنت عبد الملك زوجه ومسلمة أخوها ووصيف له يقال له مرثد فسهر وسهروا معه ثم تفرقوا عنه حين طلع النهار. قالت فاطمة : اشتد علزه ليلة فسهر وسهرنا معه ، فلما اصبحنا أمرتُ وصيفاً له يقال له مرثد ، فقلت له : يا مرثد ، كن عند أمير المؤمنين ، فان كانت له حاجة كنتُ قريباً منه، ثم انطلقنا فضربنا برؤوسنا لطول سهرنا ، فلما انتفخ النهار استيقظت فتوجهتُ إليه فوجدت مرثداً خارجاً من البيت نائماً فايقظته فقلت : يا مرثد ، مـا اخرجك ؟ قال : هو أخرجني ! قال : يا مرثد ، اخرج عني فوالله اني لأرى خلقاً ما يزدادون إلا كثرة ، مـا هم بانس ولا جن ، فخرجت فسمعته يقول : تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين .

فدخلت فاطمة مسرعة فوجدته قد وَجَد نفسه وأغمض عينيه وإنه لميت . رحمه الله [٤٢٢] .

سن الاربعين

كان عمر يستعجل الموت ، ولقد أحسّ حين دنا من الاربعين ـ وكانت اعمار بني امية في معظمها قصاراً ـ انه قد بلغ حدّه ،

(٤٢٢) الطبري ج٥ ص ٤٢٤

وكان عمر قد جعل هذه السنّ غاية لم يَعُدْ بعدها عذر لانسان ان يسرف ويعصي ربه ، فكان يقول: تمت حجّة الله على ابن الاربعين. ثم مات لها او حولها بقليل من الشهور والايام بعد ان أبلى عذره واستقال ذنبه . ابن اربعين او اقل منها ، ولكنّ الناس باتوا يظنون زهده اشق على ابن السبعين او الثمانين ، وعمله أشق على ملكٍ عُمّرَ في ملكه عهداً طويلاً[٤٢٣]

ومات عمر في أخريات رجب لسنة إحدى ومائة ، وخُمس أو ست او عشر بقين من الشهر ، وكان موته يوم الجمعة ، وتقدم للصلاة عليه الخليفة من بعده يزيد بن عبد الملك . وكان يزيد متهماً في سمّه ، قالوا انه دسّ الى خادم يخدم عمر ، فوضع الخادم السمّ على ظفر ابهامه ، فلما استسقى عمر غمس ابهامه في الماء ثم سقاه فمرض مرضه الذي مات فيه ، وكان موته من السم من قريب[٤٢٤]

ولو لم يعجل السمّ على عمر لعجلت عليه المخافة ، فقد كان مرضه جُلّه من كثرة الخوف من الله. كانت اقوى سبباً من السمّ الذي ادعوا أنه استقاه مع الماء فمات به[٤٢٥] بعد خلافة دامت سنتين وخمسة اشهر أو ستة ومعهن أيام كما كانت خلافة أبي بكر الصديق. سنتان وقليل من الأشهر ظنها الناس اعواما طويلة لكثرة ما أصابهم من خير ووفرة ما عمّهم من عدل وانصاف .[٤٢٦]

---

(٤٢٣) العقد الفريد ج ٤ ص ٢٣٢ ــ تذكرة الحفاظ ج١ ص ١١٤

(٤٢٤) العقد الفريد ج ٤ ص ٤٣٢ ، ٤٣٩

(٤٢٥) طبقات الشعراني ج ١ ص ٣٣

(٤٢٦) الصفوة ج ٢ ص ٧٢ ــ شذرات الذهب ج ١ ص ١١٩

وعاطفة المخافة متى صارت مألوفة فانها تصبح قادرة على احداث انقلاب نفسيّ ومَرض حقيقيّ ، فاذا انضم الى الخوف تفكير لا ينقطع وشعور بالمسئولية والعاقبة فان الموت قادم لا محالة مسرعاً على رجلٍ لم يبلغ من السن غير قليل .

نبش القبور

ودفن عمر في مـــكانه الذي اشتراه من أرض الدير ، [٤٢٧] ووقف عليـــه مسلمة بن عبد الملك يقول : اما والله ما أمنت الرق حتى رأيت هذا القبر او مر الحول على دفنه ، وصار لصاحب الدير أن ينبش القبر ويزرع الارض . ولكنه لم ينبشه ولم ينتفع بها ، بـل ابقى عليه وصانه وجعله مَعْلما على الطريق يفد اليه الناس فيدعون له ويترحمون عليه ويبلون ترابه ، وكان الناس فيه جميعاً كما قال جرير :

لو كنت أملك والاقدار غالبة تأتي رواحاً وتبييتاً وتبتكر
رددت عن عمر الخيرات مصرعه بدير سمعان لكن يغلب القدر

وأحب الناس عمر لأنه تعفف عما في أيديهم وقل رزؤه ، وكلما ازداد الزاهد تمنعاً ازداد الناس في حبه لحاجة ، فاذا مات اتخذوا قبره مصلى . واذا عَرَض لهم من يأكل الكثير ويتذرع في اللقم مقتوه ونبذوه وكرهوا قربه واستسرفوا أدبه . ولعلةٍ ما هجر الناس زيارة مقابر الملوك والخلفاء ولهجوا بزيارة قبر عمر بن عبد العزيز .

قال هشام بن الغاز : نزلنا منزلاً مرجعنا من دابق ، فلما ارتحلنا مضى مكحول ولم يعلمنا أين ذهب ، فسرنا كثيراً حتى رأيناه فقلنا : أين

(٤٢٧) العقد الفريد ج ٤ ص ٤٣٧

ذهبت ؟ فقال : أتيت قبر عمر بن عبد العزيز وهو على خمسة اميال من المنزل فدعوتُ له ، ثم قال : لو حلفتُ ما استثنيتُ ، ما كان في زمانه أخوف لله عز وجل من عمر ، ولو حلفت ما استثنيت ، ما كان في زمانه أزهد في الدنيا من عمر [٤٢٨] !

●

لمّا مَرِض عمرو بن العاص اوصى ان يدفن بالمقطم من ناحية يقال لها الفجّ ، وكان هذا المكان طريق الناس يومئذ الى الحجاز فأحب أن يدعو له كلّ من مرّ به ! [٤٢٩]

أما عمر فتوارى عن الطريق وصار أبعد القبور عن مزدحم الارض وملتقى الناس . وكان جم التواضع ، اذ آثر ان يكون في أرض دير ، ولكنه كان متعاظماً اذ دلّ على ما بين المسلمين وأهل ذمتهم من مودة ، وعلى ما كان بين عمر نفسه وبين أهل الذمة من صفاء ، وهو المتهم ظلماً بالشدة فيهم والقسوة عليهم .

وظل القبر حيناً طويلاً في أرض الدير يعلو بتواضعه على القبور المعلمة ، ويقصده الناس حين ينكرونها ، حتى قامت الدولة العباسية على سنان منشبة في اكباد الأمويين الاحياء ، ثم غلا الثأر الجامح غليانه فخرج بأهله عن الوقار ، وثار أهل الشام مع الثائرين لما ملّوا امية فنبشوا مع العباسيين قبور الأموات ، وأخرجوا الجثث يجلدونها بالسياط ويحرقونها بالنار .

وأمعن العباسيون بعد مذبحة الأمويين في « أبي فطرس »

---

(٤٢٨) ابن الجوزي ص ٢٩

(٤٢٩) فتوح مصر واخبارها ص ٢٥٣

بفلسطين في محو آثار الموتى بدمشق وقنسرين ودابق والرصافة ، وأخرجوا جثة سليمان بن عبد الملك من قبره بدابق وجلدوها ، وجثة هشام من مدفنه بالرصافة — وكانت جثته لم تزل متماسكة — فأحرقوها وذروا رمادها .

ولكن قبر عمر بن عبد العزيز سلم من البطش ، وجاوزته حمى الغضب وُرحَضاؤه فلم تمتد اليه يد بالأذى . وضاعت معالم القبور المشهورة ، وبقي القبر المتواضع مُعلَما مشهورا . وكان زهد عمر وورعه وعدله منجاة لعظامه ومأمنا لترابه [٤٢٩] . وظل القبر سنين طوالا يحج اليه المقيمون والوافدون ، ثم دهم الشرق ما دهمه فنهب الدير وضاعت معالم القبر وانقطع عنه الناس ، وبقيت كل اديار سمعان تعرف إلا دير سمعان المعروف .

عظة المنصور

قال الخليفة المنصور لعبد الرحمن بن القاسم بن محمد بن ابي بكر : عظني ، قال : بما رأيت أو بما سمعت ؟ قال المنصور : بما رأيت ، فقال : مات عمر بن عبد العزيز رحمه الله وخلف أحد عشر ابنا ، وبلغت تركته سبعة عشر دينارا ، كفن بخمسة واشتري له موضع قبره بدينارين ، وقسم الباقي على ولده ، فأصاب كل ذكر منهم تسعة عشر درهما .

ومات هشام بن عبد الملك ، فقسمت تركته على أولاده ، فأصاب كل واحد منهم ألف ألف ، ورأيت رجلًا من ولد عمر قد حمل في يوم

---

(٤٢٩) تاريخ العرب المطول ص ٢٨٩ ، ٣٥٧

واحد على مائة فرس في سبيل الله عز وجل ، ورأيت رجلاً من ولد هشام يتصدق عليه الناس [٤٣٠] .

عظمة المظهر

ولقد ظلت الدولة الأموية تملك الخلافة مائة عام أو نحوها ، وهذه المدة اقصى مدة تعيشها دولة يتردّى أمراؤها في حمأة الانحراف ، وكان خليقاً بهذه الدولة - في المظهر - ان تعيش أطول مما عاشت بسبب الفتوح الضخمة التي تمت في عهدها ، ولكن الفتوح لم تكن مقياساً صحيحاً لها لتبقى أو تزول ، فانما كانت امتداداً للدفعة القوية الجبارة التي دفعتها غزوات النبي وسراياه ، ثم لما فعل أبوبكر وعمر من بعد .

أما المقياس الحق لبني أمية فكانت سياستهم في داخل البلاد المفتوحة ووطأتهم على العراق والحجاز خاصة ، وعلى أصحاب النبي وأهل بيته على الأخص الأخص . ومن المؤسف أن فتوحهم لم تقم شفيعاً لهم في مسلكهم وسياستهم ، فانهارت الدولة برغم ما اصابها في بعض الاحيان من نوبات للخير والعدالة . الا أن النوبات لم تطرد ولم تمتد ، وانما كانت تفد مع مزاج صاحبها وتزول بزواله ، ثم ترجع الامور الى سفسافها . لذلك ولغيره لم تظل الدولة غير مائة عام أو نحوها ، وهي أقصى المدة لدولة يتردى امراؤها في حمأة الانحراف عن جادة الصواب .

ولم تفقد الامة العربية في دولة بني أمية صلاحها وتقواها ولا

---

(٤٣٠) ابن الجوزي ص ٢٩٦

علمها وفقهها ولا جهدها وكسبها ، وان ظل أكثر الفقهاء والعلماء بمعزل عن الخلفاء ومنأى . وبينما كانت قصور الامراء تنحل وتسلم أقدامها للزوال كانت الأمة تعمل على أن تعيش وتبقى في ظل دينها الجديد . ولم يسلم من البيت الاموي غير اولئك الافراد الذين سلكوا مسالك الزهاد وانخرطوا في نظام الفقهاء والعلماء فأبقوا على أنفسهم وأولادهم مع الأمة الحية الصالحة التي كانت تحارب وتستشهد وتتفقه وتتعلم حتى تبقي على كيانها أن ينحل وعلى ملكها المكسوب أن يزول .

obeikandl.com

مراجع الكتاب

١ الأغاني لأبي الفرج

٢ الالحاد في الاسلام لعبد الرحمن بدوي

٣ البيان والتبيين للجاحظ

٤ تاريخ آداب العرب للرافعي

٥ » داريّا للقاضي الخولاني تحقيق سعيد الافغاني

٦ » الشعوب الاسلامية لبروكلمان ترجمة منير البعلبكي ونبيه فارس

٧ تاريخ الطبري

٨ » العرب مطول لفيليب حتي (ترجمة)

٩ » مدينة دمشق لابن عساكر تحقيق صلاح المنجّد

١٠ » اليعقوبي

١١ تذكرة الحفاظ الذهبي

١٢ التراث اليوناني في الحضارة الاسلامية لعبد الرحمن بدوي

١٣ التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع لأبي الحسين الملطي الشافعي

obeikandl.com

١٤	ثمار القلوب	للثعالبي
١٥	جلاء الأفهام	لابن قيم الجوزية
١٦	الحكمة الخالدة	لمسكويه تحقيق عبدالرحمن بدوي
١٧	حماة الاسلام	
١٨	حياة الحيوان	للدميري
١٩	الخراج	لابن آدم القرشي
٢٠	الخراج	لأبي يوسف
٢١	خطط الشام	لكرد علي
٢٢	الدعوة الى الاسلام	لسير توماس أرنولد (ترجمة)
٢٣	رياض النفوس	لأبي بكر المالكي
٢٤	الأزمنة والأمكنة	للمرزوقي الاصفهاني
٢٥	زهر الآداب	للحصري
٢٦	زين العابدين	للمؤلف
٢٧	سيرة عمر بن عبدالعزيز	لابن الجوزي وأشرنا إليه بابن الجوزي
٢٨	سيرة عمر بن عبدالعزيز	لابن عبد الحكم
	« «	بابن عبد الحكم
٢٩	شذرات الذهب	لابن العماد
٣٠	صبح الأعشى	للقلقشندي
٣١	صفة الصفوة	لابن الجوزي
٣٢	الطبقات	لابن سعد
٣٣	الطبقات الكبرى	للشعراني

obeikandl.com

٣٤ طريق الهجرتين لابن قيم الجوزية
٣٥ ظهر الاسلام لأحمد أمين
٣٦ العقد الفريد لابن عبد ربه
٣٧ عمر بن عبد العزيز لأحمد صفوت (سلسلة اقرأ)
٣٨ عيون الاخبار للدينوري
٣٩ غوطة دمشق لكرد علي
٤٠ فاطمة الزهراء والفاطميون لعباس العقاد (سلسلة دار الهلال)
٤١ فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم (طبعة ليدن)
٤٢ فجر الاسلام لاحمد امين
٤٣ الفخري في الآداب السلطانية لابن الطقطقى
٤٤ قصص العرب لجاد المولى وصاحبه
٤٥ القومية المصرية الاسلامية لابراهيم جمعة
٤٦ الكامل لابن الاثير وأشرنا إليه بابن الاثير
٤٧ الكامل للمبرد
٤٨ محاسن السلوك لمحمد غنيم
٤٩ محاضرات تاريخ الامم الاسلامية للخضري
٥٠ المرشد في الدين الاسلامي لجماعة من الاساتذة المصريين
٥١ مروج الذهب للمسعودي
٥٢ مسالك الابصار للعمري
٥٣ المطالعة التوجيهية لجماعة من الأساتذة المصريين
٥٤ المعارف لابن قتيبة
٥٥ معالم الموسيقى العربية لنسيب الاختيار

٥٦ معجم البلدان لياقوت
٥٧ الموافقات في أصول الشريعة للشاطبي
٥٨ الموشح للمرزباني
٥٩ النجوم الزاهرة لأبي المحاسن
٦٠ الانصاف للباقلاني
٦١ وفيات الأعيان لابن خلكان

حمانا ــ لبنان

في يوم الثلاثاء ٥ من صفر سنة ١٣٧٣ ،
الموافق ١٣ من تشرين اول ــ اكتوبر ــ سنة ١٩٥٣

obeikandl.com

تصويب

الخطأ	الصواب	الصفحة	السطر
بني هلال	فتاة بني هلال	٩	١٦
عمر نفسه	ورأى عمر نفسه	٦٧	٥
ما علم	ما علمنا	٩٧	١٣
تركهن	تركها	٩٩	١٣
من	بعض	١٠٠	٢٣
أنه	إنه	١٠٢	٥
ومورود	مورود	١٠٢	١٥
يريد أن	يريد إن	١١١	١٩
الشاعر :أو	الشاعر أو	١٢٦	١٥
نوس	النفوس	١٢٧	٢٢
فأكتب	فاكتب	١٣٨	٢١
فعله أن	فعله ورأوا أن	١٦٥	١
ابن مسجح	ابن مسيح	١٧٢	٤
المنتي	المغني	١٧٢	٦
حاكم	حالم	١٧٨	١٢
عسّ	تمسّ	٢٢٩	٢
وأنفذ	وأنفد	٢٣٠	١٣
فتزوجها	فتزوجتها	٢٣١	٢

obeikandl.com

obeikandl.com

الفهرس

١ **الباب الاول** : نبعة السهام ٦

عمر بن الخطاب ٦ أولاد عمر ٨ عاصم بن عمر ٨ فتاة بني هلال ٩ ام عاصم ١١ عبد العزيز بن مروان ١٢ عمر ابن عبد العزيز ١٤ نشأة عمر ١٦ رؤيا صادقة ١٩ الجوهر السليم ٢٣ علم عمر ٢٤ فاطمة بنت عبد الملك ٢٦ القطائع ٢٧ قطائع عمر ٣٢ إمرة خناصرة ٣٣

٢ **الباب الثاني** : ولاية المدينة ٣٤

بداية الفطنة ٣٤ مشورة الفقهاء ٣٥ ميول عمر ٣٩ غضبة على فقيه ٤٢ الأمير الأمير ٤٣ مسجد المدينة ٤٣ اصلاحات شتى ٤٥ زيارة الوليد ٤٦ سعيد بن المسيب ٤٧ خطبة الوليد ٥٠ مفترق الطريق ٥٢ عزل عمر ٥٧ عهد جديد ٥٨

٣ **الباب الثالث** : منزل السويداء ٦٠

رحلة ليل ٦٠ الفقه الأصغر ٦٣ الظلم الشامل ٦٤ اول

التوبة ٦٦ الى دمشق ٧٠ عمر والوليد ٧١ عمر
وسليمان ٧٥ مرضة سليمان ٨٢ رجاء بن حيوة ٨٤
٤ الباب الرابع : يوم عصيب ٨٦
موت سليمان ٨٦ بيعة عمر ٨٨ ثلاثة كتب ٩١ هبوب
العاصفة ٩٣ مطامع النساء ٩٥ بيت سليمان ٩٧ أول
العدالة ٩٨ فقه جديد ٩٩ أمراء بني أمية ١٠٠ ارباح
التجار ١١٢ عزل الولاة ١١٣ مسلمة بن عبدالملك ١١٤
مشية الرهبان ١١٥ حنين عمر ١١٦
٥ الباب الخامس : طريق العدالة ١١٨
المسئول الأول ١١٨ عبد الملك بن عمر ١١٩ عزيمة
صادقة ١٢٥ الذوق والكسب ١٢٦ أصحاب عمر ١٢٦
الفقه الأكبر ١٣٤ شروط العامل ١٣٥ القضاة والعمال ١٣٦
بلال بن أبي بردة ١٣٧ صورة العدالة ١٤٠ ماليس من
العدل ١٤١ تنفيذ الأحكام ١٤١ انواع المحاكم ١٤٥ مراقبة
العمال ١٤٦ الشكاوى ١٤٩ فن جديد ١٤٩ أثر العدالة ١٥١
٦ الباب السادس : سياسة الناس ١٥٥
الزمان الأول ١٥٥ بيت المال ١٥٧ القصد والاسراف
١٦٠ الرفق بالرعية ١٦٢ أهل العراق ١٦٤ اهل المدينة ١٦٦
أهل مكة ١٦٩ أهل الرقة وأهل أيلة ١٦٩ أهل سمرقند
وأذربيجان وخراسان ١٧٠ حلبة السباق ١٧١ درس
قاس ١٧٣ رحمة الضعفاء ١٧٤ الخوارج والحرورية ١٧٦
أهل الذمة ١٧٧ الرفق بالحيوان ١٨٠ الاصلاح ١٨١

مسجد دمشق ١٨٢ حسن البيان ١٨٩
٧ الباب السابع : دعوة الخير ١٩٤
القدرية والعصاة ١٩٤ جند المسلمين ١٩٨ بدعة معاوية ٢٠١
بدعة الناس ٢٠٤ شيعة علي ٢٠٦ قصة فدك ٢١٠ علوم
الدين ٢١٢ علوم الدنيا ٢١٣ العلماء والمعلمون ٢١٤
المعلم ومنهاج الدراسة ٢١٦ الزكاة ٢١٧ الدعوة الى
الاسلام ٢١٩
٨ الباب الثامن : دير سمعان ٢٢٤
ديارات سمعان ٢٢٤ مخافة الموت ٢٢٦ النفس التواقة
٢٢٩ بقاء الروح ٢٣١ محبة الأرض ٢٣١ المال
الموروث ٢٣٣ سن الأربعين ٢٣٧ نبش القبور ٢٣٩
عظة المنصور ٢٤١ عظة الدهر ٢٤٢

انتهى طبع هذا الكتاب على

مطابع دار الكشاف - بيروت

في الرابع من شهر ربيع الثاني ١٧٧٣ هـ
والعاشر من شهر كانون الاول ١٩٥٣ م